سيرة ذاتية

الاسم واللقب: ريمة كعبش

المؤسسة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

الدرجة العلمية: أستاذ محاضر "أ"

البريد الالكتروني: rym.doc16@gmail.com

الهاتف المحمول: 0794513630

محور المداخلة: المحور :الرابع: أحداث الثامن ماي1945م في الأدبيات الوطنية

عنوان المداخلة: **صورة مجازر 08ماي 1945 في المقالة الأدبية الحديثة والمعاصرة**

– مقالة "ذكرى 08 ماي" لـ "البشير الإبراهيمي" أنموذجا –

الملخص باللغة العربية:

تأثّر الكثير من الأدباء الجزائريين المحدثين والمعاصرين بأحداث 8ماي 1945، فكتبوا نتيجة تأثرهم هذا نصوصا شعرية ونثرية، معبرين فيها عن ألمهم الشديد مما حصل في الجزائر بسبب الاستعمار الفرنسي الغاشم، و"البشير الإبراهيمي" واحد من أولئك الأدباء، حيث كتب في جريدة "البصائر" مقالة أدبية يستحضر فيها ذكرى تلك الأحداث بطريقة مبدعة.

يروم هذا البحث دراسة مقالة "البشير الإبراهيمي" "ذكرى8ماي" الأدبية، والكشف عن صورة مجازر 8 ماي 1945، وأبعادها الفنية والجمالية.

The Image of the May 8, 1945 Massacres in Modern and Contemporary Literary Essays: A Case Study of "The Commemoration of May 8" by Bachir El Ibrahimi

الملخص باللغة الإنجليزية:

Many Algerian writers were deeply affected by the events of May 8, 1945, and as a result, they wrote poetic and prose texts expressing their profound pain over what happened in Algeria due to the brutal French colonialism. Bachir El

Ibrahimi is one such writer, having written a literary essay in the newspaper Al-Basair that creatively evokes the memory of those events.

This research aims to study Bachir El Ibrahimi's literary essay "The Commemoration of May 8," revealing the image of the May 8, 1945 massacres and their artistic and aesthetic dimensions.

مقدمة:

تمثل مجازر 8ماي 1945 نقطة تحول كبرى في تاريخ الجزائر؛ حيث وقعت بعدها الكثير من الأحداث المهمة التي غيّرت مجرى التاريخ، وأبرز هذه الأحداث هو حدث أول نوفمبر 1954، الذي يمثل تاريخ اندلاع الثورة التحريرية المجيدة، وما أعقب هذا التاريخ من انتصار على العدو الفرنسي الظالم يوم 05جويلية1962.

لقد أثرت هذه المجازر في الكثير من الكتّاب الجزائريين، فأخذوا يكتبون عنها نصوصا أدبية شعرية ونثرية، وأبرز هؤلاء الكتّاب هو العلاّمة المصلح "البشير الإبراهيمي"، الذي كتب مقالة أدبية شهيرة عنوانها "ذكرى 8ماي"، تناول فيها تلك المجازر الأليمة بنبرة فيها الكثير من الحزن والأسى.

وقبل أن نقوم بتحليل هذه المقالة الأدبية يجدر بنا أولا أن نحدد مفهوم المقالة، ونعرج إلى نشأتها، فما مفهوم المقالة؟ ومتى ظهرت في الأدب الجزائري؟

1/مفهوم المقالة الأدبية:

تعددت تعريفات المقالة الأدبية واختلفت من باحث إلى آخر، فـ"محمد يوسف نجم" يعرفها بقوله: "المقالة الأدبية قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق. وشرطها الأول أن تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب."[1]

والمقال في منظور "طلعت صبح السيد": " يطلق في عصرنا الحديث على الموضوع المكتوب بأسلوب أدبي، ويوضح فكرة من الأفكار، أو مسألة من المسائل، يشرحها الكاتب، ويشفعها بالأدلة والبراهين، ويعرضها في الصورة الملائمة التي تتفق ورأيه ومذهبه، حتى إذا استوفت حقها ختمها الكاتب بالخاتمة المناسبة."[2]

وهو عند "خالد أبو الليل": " فن، يعرض الكاتب فيه لأفكاره وقضاياه بأسلوب أدبي جذاب، وفكرة واضحة، ليجمع في أسلوبه بين الإقناع والإمتاع."[3]

الملاحظ من هذه التعريفات أنها تكاد تتفق كلها في النظر إلى المقالة بأنها فن من الفنون النثرية، يناقش موضوعا ما، يهدف الكاتب من ورائه إلى تقديم فكرة معينة، أو وجهة نظر معينة، بطريقة أدبية جذابة وممتعة، بالاعتماد على الحجج والبراهين، من أجل إقناع القارئ، والتأثير فيه.

2/ نشأة المقالة الأدبية في الجزائر:

لقد ظهر فن المقال في العصر الحديث من خلال الصحف والجرائد والمجلات، وهذا ما يؤكده "محمد يوسف نجم" بقوله: " يرتبط تاريخ المقالة في أدبنا الحديث بتاريخ الصحافة ارتباطا وثيقا(...) بل نشأت في حضن الصحافة، واستمدت منها نسمة الحياة منذ ظهورها، وخدمت أغراضها المختلفة، وحملت إلى قرائها آراء محرريها وكتابها."[4]

هذا بالنسبة للمقالة في الأدب العربي الحديث بصفة عامة، أما بالنسبة للمقالة في الأدب الجزائري تحديدا، فإنها قد ظهرت "في الربع الثاني من القرن العشرين، وذلك من خلال الصحف التي اتخذت لها من اللغة العربية الفصحى لسانا، فانتعشت وتطورت".[5]

لكن المقالة الأدبية جاءت متأخرة عن المقال الصحفي، وهذا ما يؤكده "عبد الله الركيبي": بقوله: "إن المقالة الأدبية جاءت متأخرة عن المقال الصحفي، فإن كان الدارسون يذهبون إلى أن المقال الصحفي قد نشأ في منتصف القرن الماضي فإن المقال الأدبي في تقديرنا يرجع إلى هذا القرن العشرين".[6]

ف" الضغط الاستعماري كان شديدا على الفرد والمجتمع وكان شاملا للجميع من جمعيات وأحزاب، فكان النضال السياسي متمثلا في ظهور الأحزاب وكفاحها بواسطة المقال السياسي، وكانت الجمعيات الثقافية وخاصة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والحركة الإصلاحية بوجه عام، تكافح هي الأخرى بواسطة المقال الإصلاحي الصرف، ثم بالمقال الأدبي الإصلاحي حين تطورت الثقافة ووجدت مناخا أدبيا يساعد على هذا الاتجاه."[7]

ففي المجمل "كان أدب المقالة يدور في فلك الإصلاح والسياسة والدفاع عن مصالح الشعب والمطالبة بها، ويؤكد في مضمونه معنى أساسيا يمثل جوهر الحركة الإصلاحية وذلك بالدفاع عن الإسلام واللغة العربية والشخصية الوطنية وترسيخ هذه المقومات في نفوس الجزائريين".[8]

بهذا كان للصحافة دورا كبيرا في انتشار المقالة الأدبية، فتعددت مواضيعها، من مواضيع سياسية، واجتماعية، وتاريخية، ودينية... ، وكان تأثيرها كبيرا في أوساط القراء المتلقين لها، بفضل لغتها السلسة وأسلوبها المتأنق الماتع.

ومن أبرز كتّاب المقالة في الجزائر بأنواعها المختلفة في القرن العشرين، نذكر: "البشير الإبراهيمي، وعبد الحميد بن باديس، وأحمد رضا حوحو، ومحمد السعيد الزاهري، وباعزيز بن عمر، وأحمد توفيق المدني، وفرحات بن الدراجي، والطيب العقبي، ومحمد بوزوزو، وأحمد بن ذياب... وآخرون." [9]

فمعظم هؤلاء كانوا ينتمون إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إلا أن أكثرهم براعة في كتابة المقالة الأدبية هم: "البشير الإبراهيمي" و"عبد الحميد بن باديس"، وذلك لما تميزت به مقالاتهم من جمال في العبارة، وإبداع في التصوير.

إن هذه المقالات تعد بحق جنسا أدبيا سياسيا بامتياز، فقد بيّنت التزام كتابها بالقضية الوطنية، ومثّلت مظهرا من مظاهر المقاومة والنضال بالكلمة.

3/ تحليل مقالة البشير الإبراهيمي:

اتسمت مقالة البشير الإبراهيمي "ذكرى 8ماي" بالعديد من الخصائص، سواء على مستوى الشكل أو المضمون، فعلى مستوى المضمون نجد توظيف الكاتب للتاريخ، وذلك باستدعاء الحدث التاريخي، والشخصية التاريخية، فكيف كان هذا التوظيف؟

أ/ توظيف الحدث التاريخي:

كتب البشير الإبراهيمي مقالة "ذكرى8ماي" ونشرها في مجلة جريدة البصائر بتاريخ 10ماي 1948، في العدد 35، وذلك تخليدا لذكرى مجازر الثامن من ماي 1945، هذه المجازر التي راح ضحيتها أكثر من خمسة وأربعين ألف شهيد، في كل من سطيف، وقالمة، وخراطة، فموضوع هذه المقالة، تاريخي سياسي، لأن الكاتب يسترجع فيه هذا الحدث التاريخي الأليم، ومن جهة أخرى يكشف وحشية الاستعمار الفرنسي، وما قام به في حق الأهالي الجزائريين العزل، من تقتيل وتنكيل، وانتهاك للحرمات والممتلكات، من خلال الكثير من الأوصاف التي يعبر من خلالها عن حزنه الشديد مما لحق بوطنه و بأبناء وطنه من قبل المستدمر الفرنسي الغاشم.

يطالعنا هذا الحدث من البداية؛ أي من العنوان، إذ يذكره الكاتب صراحة "ذكرى 8ماي"، ثم يمهد شيئا فشيئا بالحديث عن تفاصيل هذا الحدث متبعا في ذلك المنهجية الدقيقة والتحليل المنطقي الذي تقتضيه المقالة، ففي المقالة مقدمة، وعرض، وخاتمة، هذه العناصر الثلاثة تحدد الإطار الفني العام للمقالة، وتظهر تسلسل الأفكار وتنظيمها وترتيبها، إذ يقول في المقدمة: "يوم مظلم الجوانب بالظلم، مطرز الحواشي بالدماء المطلولة، مقشعر الأرض من بطش الأقوياء، مبتهج السماء بأرواح الشهداء؛ خلعت شمسه طبيعتها فلا حياة ولا نور، وخرج شهره عن طاعة الربيع فلا ثمر ولا نور، وغبنت حقيقته عند الأقلام فلا تصوير ولا تدوين."[10]

تسيطر على هذا القول الرؤية المأساوية للعالم، فالكاتب يحدثنا عن المآسي التي حدثت في هذا اليوم، فجعلته يوما مظلما باهتا شاحبا لا حياة فيه.

وقد وظف الكاتب في هذا القول الكثير من المحسنات البديعية التي عملت على تحسين الكلام وتوضيح المعنى وتقويته، يظهر هذا من خلال الكلمتين: (مظلم، الظلم) اللتين تمثلان الجناس الناقص، لتشابههما واختلافهما في عدد الحروف، وقد أعطى هذا النوع من المحسنات البديعية جرسا موسيقيا للكلام.

كما توفر القول على السجع، الذي أعطى للكلام قيمة جمالية، تمثلت في الإيقاع الذي أحدثته نهايات الكلمات في هذه العبارات: (مقشعر الأرض من بطش الأقوياء، مبتهج السماء بأرواح الشهداء)، فهذه الكلمات المتفقة في أواخرها أسهمت في إضفاء الجمال على النص، ومنحته قوة وتأثيرا كبيرا.

واشتمل القول أيضا على محسن بديعي آخر، هو الطباق، وذلك من خلال الكلمتين المتضادتين في المعنى: (مظلم، نور)، ونوع هذا الطباق، هو طباق الإيجاب، وله أثر كبير في المعنى، إذ يعمل على توكيده وتقويته، لأن الأشياء بأضدادها تعرف.

يتدرج الكاتب في الحديث عن حدث 8ماي ذاكرا الظلم الكبير الذي تعرض له الشعب الجزائري من طرف المستدمر الفرنسي، إذ يقول: " يوم ليس بالغريب عن(رزنامة) الاستعمار الإفرنسي بهذا الوطن، فكم له من أيام مثله، ولكن الغريب فيه أن يجعل–عن قصد– ختاما لكتاب الحرب، ممن أنهكتهم الحرب على من قاسمهم لأواءها، وأعانهم على إحراز النصر فيها؛ ولو كان هذا اليوم في أوائل الحرب لوجدنا من يقول: إنه تجربة، كما يجرب الجبان القوي سيفه في الضعيف الأعزل."[11]

يؤكد "البشير الإبراهيمي" في هذا القول أن هذه المجازر ليست أول جريمة ترتكب في حق الشعب الجزائري، فهذا الشعب كان يعاني من ويلات الاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر، أي منذ سنة 1830، فالحروب التي شنها المستدمر الفرنسي على أرض الجزائر كثيرة جدا، لكن الحرب التي شنها هذا المستدمر في الثامن من ماي تعتبر أكثرها فظاعة، وكأنها كما يقول الكاتب "ختاما لكتاب الحرب" لقسوتها، ووحشيتها، ولكنها من ناحية أخرى تمهيدا لحرب أخرى هي حرب التحرير الكبرى (ثورة 1نوفمبر 1954)، والشاهد على ذلك قول الكاتب:" ولو كان هذا اليوم في أوائل الحرب لوجدنا من يقول: إنه تجربة".

وفي هذا القول الكثير من المحسنات البديعية كذلك، تظهر من خلال الكلمات: (القوي، الضعيف)، (الجبان، القوي)، (ختاما، أوائل)، وكلها تندرج في إطار طباق الإيجاب، وهذا الطباق مثير للانتباه، مبرز للمعنى ومؤكد له.

كما يذكر الكاتب في موضع آخر من مقالته حدث 8 ماي بطريقة مباشرة، مؤكدا على شدة بطش المستعمر الفرنسي وجرمه في حق الشعب الجزائري. يقول: "وفيما بين خطرة البرق، بين الغرب والشرق،

أعلنت حرب من طرف واحد، وانجلت في بضعة أيام عن ألوف من القتلى العزل الضعفاء، وإحراق قرى وتدمير مساكن، واستباحة حرمات ونهب أموال، وما تبع ذلك من تغريم وسجن واعتقال، ذلكم هو يوم 8ماي." [12]

إن البشير الإبراهيمي في سرده لهذا الحدث التاريخي يتبع طريقة المؤرخ في التأريخ والكتابة التاريخية، لكنه في الكثير من المواضع يخرج عن حدود وضوابط هذه الكتابة، فيعمد إلى استخدام التعابير الأدبية، حيث يشتغل اشتغالا مكثفا على اللغة والأسلوب مما جعل مقالته أدبية بامتياز.

ومن شدة تأثر "البشير الإبراهيمي" بهذا الحدث التاريخي، فإنه يكثر من استحضار ما وقع فيه، إذ يقول مرة أخرى عنه: "يا يوم ! ...لله دماء بريئة أريقت فيك، ولله أعراض ظاهرة انتهكت فيك، ولله أموال محترمة استبيحت فيك، ولله يتامى فقدوا العائل الكافي فيك، ولله أيامى فقدن بعولتهن فيك."[13]

يستخدم الكاتب هنا أسلوب النداء مخاطبا هذا اليوم: " يا يوم ! ...لله دماء بريئة أريقت فيك..."، فيبدو وكأنه يلوم هذا اليوم على ما حدث فيه من إجرام وتعدي على النفوس والممتلكات، فينقل لنا شعوره بالمرارة على ما أصاب أبناء الوطن من قبل المستعمر الفرنسي.

يختم "البشير الإبراهيمي" مقالته الأدبية بهذا القول مستحضرا مرة أخرى حدث 8 ماي بطريقة مباشرة. يقول: " يا يوم ! ...لك في نفوسنا السمة التي لا تمحى، والذكرى التي لا تنسى، فكن من أية سنة شئت فأنت يوم 8ماي وكفى. وكل ما لك علينا من دين أن نحي ذكراك؛ وكل ما علينا لك من واجب أن ندون تاريخك في الطروس لئلا يمسحه النسيان من النفوس.[14]

يمثل هذا القول خاتمة المقالة، إذ يذكر "البشير الإبراهيمي" السبب الذي جعله يستحضر ذكرى الثامن من ماي، فهو خلد هذه الذكرى حتى لا تزول تفاصيلها في أذهان الجزائريين، كما أن ضميره الحي ووطنيته هما الدافع الأساسي من وراء تخليده لهذه الذكرى، فتاريخ 8ماي تاريخ عظيم.

كما يوظف الكاتب حدث مشاركة الجزائريين فرنسا في حربها ضد الألمان لكنه لا يشير إليه صراحة إنما يذكره بطريقة ضمنية، إذ يقول:" ممن أنهكتهم الحرب على من قاسمهم لأواءها، وأعانهم على إحراز النصر فيها".[15]

وقوله أيضا: "وقدمت من ثمن النصر مئات الألوف من أبنائها قاتلوا لغير غاية، وقتلوا من غير شرف".[16]

إن "مجازر 08ماي1945 تعود خلفياتها إلى التطورات الحاصلة في مسار الحركة الوطنية عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية، وما صاحب ذلك تغييرات سياسية واقتصادية أثرت على الشعب الجزائري بصفة عامة، وعلى زعماء الحركة الوطنية بصفة خاصة، ويظهر ذلك جليا من خلال المذكرة المقدمة من

قبل فرحات عباس في 10 أفريل1941 التي تضمنت جملة من المطالب السياسية والاقتصادية، ثم بعد ذلك صدر بيان فيفري 1943 الذي تم تحريره بعد مشاورات مع مختلف أطياف الحركة الوطنية الجزائرية."[17]

ففي كل مرة يشير الكاتب في النص إلى أن الجزائريون كانوا يطالبون سلطة الاحتلال بالوفاء بعهدها بمنحهم الاستقلال الموعود بعد أن جند الآلاف منهم لمساعدتها في الحرب العالمية الثانية، لكنها خذلتهم وسفكت دماءهم. يقول :" أما هذه الأمة فكانت تقاتل لخيال من أمل، وذماء من حياة، وصبابة من رجاء، وخلب من وعد علا نداؤه، وتجاوبت في الخافقين أصداؤه، من ديمقراطية زائفة كذب نبيها مرتين في جيل واحد."[18]

فقد " كان هناك وجود سبق وإصرار وترصد في وسط المستوطنين للإقدام على أفعال وارتكاب مجازر ضد المسلمين تظهر مدى عدم موافقة المستوطنين الأوروبيين في الجزائر على الإصلاحات التي وعدت بها حكومتهم المسلمين فيما عرف بمرسوم 07مارس1944."[19]

وقوله:"فلما سكن الإعصار وتنفست الأمم في جو من السلم، وتهيأت كل أمة أن تستقبل بقايا النار من شبابها، وكل أم أن تعانق وحيدها، عاودت الاستعمار ألوهيته وحيوانيته في لحظة واحدة، يحاد الله بتلك، ويغتال عباده بهذه، وعاد بالتقتيل على من كانوا بالأمس يمدون حياته بحياتهم، ليريهم مبلغ الصدق في تلك الوعود، ويحدثهم بلغة الدم ومنطق الأشلاء أنه إنما أقام سوق الحرب ليشتري حياته بموتهم".[20]

وقوله أيضا:" فقد فتح الناس أعينهم في يوم واحد على بشائر تدق بالنصر، وعلى عشائر من المنتصرين تساق للنحر، وفتحوا آذانهم على مدافع للتبشير، وأخرى للتدمير، وعلى أخبار تؤذن بأن الدماء رأقت في العالم كله".[21]

وقوله: "لك الويل أيها الاستعمار ! أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجدك، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام، ويجوع أهله وأهلك بطان، ويثبت في العواطف التي تطير فيها نفوس أبنائك شعاعا؟ أيشرفك أن ينقلب الجزائري من ميدان القتال إلى أهله بعد أن شاركك في النصر لا في الغنيمة ولعل فرحه بانتصارك مساو لفرحه بالسلامة، فيجد الأب قتيلا، والأم مجنونة من الفزع، والدار مهدمة أو محروقة، والغلة متلفة، والعرض منتهكا، والمال نهبا مقسما، والصغار هائمين في العراء؟".[22]

فالكاتب هنا استخدم عدة أساليب بلاغية في قول واحد، وهي : أسلوب النداء، وأسلوب التعجب، وأسلوب الاستفهام؛ وذلك في حديثه عن فرنسا وجبروتها، فالجزائريون وجدوا الإساءة بدل الإحسان، فبعد أن وقفوا إلى جانب فرنسا في الحرب العالمية الثانية، نالوا القتل، والتجويع، والتشريد، والتدمير....

فأسلوب النداء يظهر في قوله (أيها الاستعمار)، إذ يخاطب الكاتب فرنسا ويتوعدها بالعذاب الشديد من الله سبحانه وتعالى في الآخرة، فغرض النداء هنا هو التنبيه مما سيلحق بفرنسا، وقد استخدم الكاتب أسلوب التعجب مع أسلوب الاستفهام للتعبير عن دهشته واستغرابه مما قامت به فرنسا في حق الشعب الجزائري، يظهر في قوله: "لك الويل أيها الاستعمار! أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجدك، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟....والصغار هائمين في العراء؟)"، فتنوعت بذلك الأساليب البلاغية وعبرت عن انفعال الكاتب وتأثره الشديد بكل جرائم فرنسا الشنيعة.

إن هذه الأساليب البلاغية المتنوعة لها دور كبير في أداء المعنى وإبلاغه، وتحسين المبنى وتجميله، بفضل ما تكتنزه من طاقات حجاجية قادرة على الإقناع والتأثير.

لقد استحضر الكاتب في الكثير من المواضع في مقالته حدث انتصار فرنسا على الألمان، لكنه في حديثه عن هذا النصر لا يشير إلى الأطراف المتصارعة صراحة، وحتى يزيل هذا الغموض عن ذهن القارئ فهو يشير إلى مكان الحرب "برلين"، فيفهم القارئ أن فرنسا كانت في حرب مع الألمان، وذلك بقوله: "وفي لحظة واحدة تسامع العالم بأن الحرب انتهت مساء أمس ببرلين، وابتدأت صباح اليوم بالجزائر".[23]

بهذا، تعد مقالة "البشير الإبراهيمي" سجلا تاريخيا، كونه نقل لنا من خلالها الكثير من الأحداث التاريخية بطريقة أدبية متميزة، خالف بها طريقة المؤرخ في الكتابة والتأريخ.

ب/توظيف الشخصية التاريخية:

وظف الكاتب شخصية تاريخية معروفة هي شخصية "النعمان بن المنذر"، وذلك بقوله: "أين النعمان بن المنذر ويوماه من الاستعمار وأيامه؟ كان للمنذر يومان: يوم بؤس ويوم نعمى، وبينهما مجال واسع للبخت، وملعب فسيح للحظ، فإذا طار طائر النحس في أحد يوميه وقع على حائن أتت به رجلاه، أو محدود لم يلتق مع السعد في طريق،...وأين قتلى ضمخت دماؤها الغربيين، من قتلى ضمخت دماؤها أديم الأرض، وخالطت البحار حتى ماء البحر أشكل."[24]

فاستدعاء هذه الشخصية جاء في إطار الحديث عن بطش الاستعمار الفرنسي وكيده، والمعروف عن هذه الشخصية أنها من "أشهر ملوك المناذرة اللخميين قبل الإسلام، ملوك العراق أهل الحيرة، تسلم مقاليد الحكم بعد أبيه، وهو صاحب يوم البؤس والنعيم؛ وقاتل عبيد بن الأبرص الشاعر، في يوم بؤسه؛ وقاتل عدي بن زيد وغازي قرقيسيا (بين الخابور والفرات)."[25]

وقد ذكر الكاتب في هذه المقالة جزء يسيرا من قصة يوم البؤس والنعيم، فـ " "يوم البؤس"، وهو أحد يومين كان الملك يجلس فيهما عند قبري صديقيه الذين قتلهما وندم عليهما، فأسماهما الغريّين، وأطلق على اليومين: يوم البؤس، يقتل فيه من يأتيه، ويوم النعيم، يكرم فيه من يحضر."[26]

إن استشهاد الكاتب بهذه القصة إنما يدل على سعة اطلاعه على التراث العربي القديم، وثقافته الواسعة الثرية، فذكره لتلك الشخصية التاريخية كان بهدف المقارنة بينها وبين المستعمر الفرنسي، مشيرا إلى أن هذا الأخير يعد أكثر ظلم منها، ومن جهة أخرى يشير أن الاستعمار سيزول مهما طال الزمن.

وعلى العموم، فإن مقالة "البشير الإبراهيمي" من الناحية التاريخية هي "ذات قيمة عظيمة وهي تعبر بصدق عن موقف الشعب الجزائري كله".[27]

ج/ السخرية:

يوظف "البشير الإبراهيمي" خطاب السخرية في الكثير من المواضع في مقالته، فيسخر من المستعمر وممارساته القمعية التسلطية. يقول:" ولو كان هذا اليوم في أوائل الحرب لوجدنا من يقول: إنه تجربة، كما يجرب الجبان القوي سيفه في الضعيف الأعزل".[28]

فالكاتب هنا يسخر من المستعمر الفرنسي، فيقدح فيه ويصفه بأبشع الصفات، وهي صفة الجبن، بقوله: " الجبان"، فعلى الرغم من استخدامه كلمة واحدة في السياق إلا أنها تختزن صورة كاملة.

كما يجرم "البشير الإبراهيمي" المستعمر الفرنسي، فيعتبره مجرما آثما والشعب الجزائري ضحية مسكينا. يقول:"إثنان قد خلقا لمشأمة الاستعمار والحرب، ولحكمة ما كان سليلي أبوة،لا يتم أولهما إلا بثانيهما، ولا يكون ثانيهما إلا وسيلة لأولهما، وقد تلاقت يداهما الآثمتان في هذا اليوم في هذا الوطن، هذا مودع إلى ميعاد، فقعقعة السلاح تحيته، وذلك مزمع أن يقيم إلى غير ميعاد، فجثث القتلى من هذه الأمة ضحيته".[29]

إن الكاتب من خلال هذا القول يقدم الكثير من الحقائق عن المستعمر الفرنسي، ويحط من قدره، فهو قاتل متوحش تنعدم فيه الرحمة والشفقة.

وقوله أيضا: "ولكن الاستعمار العاتي يتحدى العقول لأنه عدوها، والشرائع لأنها عدوه، فلا يقوم إلا على قتل غير القاتل...ويغلو في التأله الطاغي، فيتحدى خالق العقول، ومنزل الشرائع، وينسخ حكم الله بحكمه، ورحمة الله بقسوته، فيقتل الشيوخ والزمنى والنساء والأطفال".[30]

فالكاتب هنا أشار إلى جرائم الاستعمار، التي لا تقبلها العقول ولا الشرائع، مؤكدا في كل مرة جبروته وعنجهيته، باستهدافه للأبرياء العزل من الشيوخ والأطفال والنساء بلا رحمة ولا شفقة.

تتوالى الخطابات الساخرة في هذه المقالة، فالكاتب يستخدمها لإبراز أفكاره وتأكيدها وكشف العدو وعدوانه، وهي تارة صاخبة صارمة وتارة أخرى ممزوجة بالألم والمرارة.

وقوله أيضا: "أما الاستعمار فأيامه كلها نحسات، بل دهره، كله يوم نحس مستمر، محيت الفواصل بين أيامه ولياليه، فكلها سود حوالك، يطير طائر النحس منها فلا يقع إلا على أمم آمنة مطمئنة".[31]

هنا يذم الكاتب الاستعمار الفرنسي فينظر إليه على أنه نحس مشؤوم مشيرا إلى سلبيته وكرهه الشديد له.

وقوله أيضا: "عاودت الاستعمار ألوهيته وحيوانيته في لحظة واحدة، يحاد الله بتلك، ويغتال عباده بهذه، وعاد بالتقتيل على من كانوا بالأمس يمدون حياته بحياتهم، ليريهم مبلغ الصدق في تلك الوعود، ويحدثهم بلغة الدم ومنطق الأشلاء أنه إنما أقام سوق الحرب ليشتري حياته بموتهم، وليرمم جداره بهدم ديارهم."[32]

بهذا يستخدم "البشير الإبراهيمي" الأسلوب الحاد الذي يرتبط ارتباطا شديدا بالسخرية، و"استخدام الكاتب سلاح السخرية في الأدب، هو في حد ذاته ضرب من العنف بما تحمله من تهكم معنوي شديد اللذع ثقيل الوطء عنيف الوقع."[33]

وقوله:" لك الويل أيها الاستعمار! أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجدك، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام، ويجوع أهله وأهلك بطان، ويثبت في العواطف التي تطير فيها نفوس أبنائك شعاعا؟ أيشرفك أن ينقلب الجزائري من ميدان القتال إلى أهله بعد أن شاركك في النصر لا في الغنيمة ولعل فرحه بانتصارك مساو لفرحه بالسلامة، فيجد الأب قتيلا، والأم مجنونة من الفزع، والدار مهدمة أو محروقة، والغلة متلفة، والعرض منتهكا، والمال نهبا مقسما، والصغار هائمين في العراء؟".[34]

إن اتجاه الكاتب إلى السخرية لم يكن بغرض المتعة والضحك، وإنما بغرض المواجهة وكشف حقائق الاستعمار، إذ يدينه بشدة، ويشير كثيرا إلى ظلمه وقسوته وطغيانه.

د/الاقتباس والتضمين:

تتناص مقالة "البشير الإبراهيمي" مع القرآن الكريم، إذ يوظف أجزاء منه عند حديثه عن الاستعمار الفرنسي، ولكن طريقته في الاقتباس من القرآن الكريم هي طريقة خاصة، إذ لا يأتي بالآية القرآنية كما هي، وإنما يأتي ببعض ألفاظها دون أن يضعها بين قوسين، ومن ذلك قوله:

- " أما الاستعمار فأيامه كلها نحسات". [35]استنادا إلى الآية الكريمة:" فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ."[36]

– وقوله: بل دهره، كله يوم نحس مستمر."[37] استنادا إلى الآية الكريمة:"إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ".[38]

– وقوله أيضا:" يطير طائر النحس منها فلا يقع إلا على أمم آمنة مطمئنة".[39] استنادا إلى الآية الكريمة: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ."[40]

– وقوله: "وذاقت لباس الجوع والعري والخوف".[41] استنادا إلى الآية الكريمة: "فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ".[42]

– وقوله:" وأكلت شبابها، وقطعت أسبابها".[43] استنادا إلى الآية الكريمة: "إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ"[44]

– "وصليت نار الحرب".[45] استنادا إلى الآية الكريمة: "كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"[46]

– "يحاد الله" [47]استنادا إلى الآية الكريمة: "أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ."[48]

– وأيضا:" فإذا بقي منهم كلب بالوصيد"،[49] استنادا إلى الآية الكريمة: "كَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا".[50]

– أو من ديارهم قائم غير حصيد"[51] استنادا إلى الآية الكريمة: "ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ" .[52]

– "في ساعة العسرة"[53] استنادا إلى الآية الكريمة: "لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ."[54]

– "واستصرخته"،[55] استنادا إلى الآية الكريمة: "فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ".[56]

إن اعتماد "البشير الإبراهيمي" على القرآن الكريم في نسج مقالته هذه يدل على تأثره بكلام الله، وعلى حفظه له واستيعابه لمعانيه.

ونلاحظ في مقالته هذه إكثاره من الاقتباس من القرآن الكريم، ففي العبارة الواحدة أكثر من اقتباسين، لكن في اقتباسه براعة وسلاسة في الانتقال من كلامه إلى كلام الله عز وجل، ذلك أنه عندما يقتبس الكلمة أو الجملة فإنه يحسن الاقتباس، إذ " ينزلها المنزلة الحسنة اللائقة بها ويصيرها ملكا له في تركيب جميل، ويبقى بذلك أسلوبه قويا متينا مبنيا لا يساوره ضعف ولا ارتخاء ولا فتور ولا نحول."[57]

لقد وفّق "البشير الإبراهيمي" في الاقتباس من القرآن الكريم، فهذا الاقتباس جعل كلامه أكثر بيانا وبلاغة، وجمالا وقوة.

خاتمة:

في ختام دراستنا هذه توصلنا إلى جملة من النتائج، وهي كالآتي:

- اتسمت مقالة "البشير الإبراهيمي" بالجودة الفنية، حيث اشتغل على الأسلوب فجعله أنيقا راقيا، وعلى الفكرة فجعلها عميقة ذات أبعاد دلالية كثيرة.
- تنم مقالة "البشير الإبراهيمي" عن ثقافته العربية الواسعة، إذ تعددت منابعها وتنوعت، فمنها التاريخية، والسياسية، والدينية، والأدبية...
- يجمع البشير الإبراهيمي في كتابته للمقالة الأدبية بين الأصالة والمعاصرة، إذ يتبع طريقة القدامى في نسج الأساليب الفنية، ويواكب العصر بتناوله للمواضيع المعاصرة له.
- ارتقت مقالة "البشير الإبراهيمي" إلى المستوى العالي من المهارة اللغوية وفن القول الأدبي المتميز.

هوامش وإحالات:

[1] محمد يوسف نجم: فن المقالة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط4، 1966، ص95

[2] طلعت صبح السيد: المقالة في الأدب العربي، ط1، 2006، ص8

[3] خالد أبو الليل: فن المقالة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، (د، ط)، (د، ت)، ص4

[4] محمد يوسف نجم، 1966، فن المقالة، بيروت، دار الثقافة ص 64، 65

[5] عبد المالك مرتاض: أدب المقاومة الوطنية في الجزائر(1962/1830)، رصد لصور المقاومة في النثر الفني)، سلسلة منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ج2، 2009، ص121

[6] عبد الله الركيبي، تطور النثر العربي الحديث، دار الكتاب العربية، الجزائر، 2011، نقلا عن: سهى حيمور: خصائص المقال عند العلامة محمد البشير الإبراهيمي ومضامينه، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج بوعريريج، المجلد3، العدد01، جانفي2022، ص248

[7] عبد الله الركيبي، تطور النثر العربي الحديث، دار الكتاب العربية، الجزائر، 2011، نقلا عن: سهى حيمور: خصائص المقال عند العلامة محمد البشير الإبراهيمي ومضامينه، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج بوعريريج، المجلد3، العدد01، جانفي2022، ص248 ص250

[8] حياة عمارة: أدبية المقال الإصلاحي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، مجلة الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، المجلد 21، العدد1، 2021، ص89

[9] عبد المالك مرتاض: أدب المقاومة الوطنية في الجزائر(1962/1830)، ص121

[10] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي، ج3، ط1، بيروت،1997، ص333

[11] المصدر نفسه، ص333

[12] المصدر نفسه، ص335

[13] المصدر نفسه، ص335

[14] المصدر نفسه، ص335

[15] المصدر نفسه، ص333

[16] المصدر نفسه، ص333

[17] عامر زناتي: البشير الإبراهيمي وحوادث الثامن ماي1945م، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، المجلد12، العدد2، 2019، ص839

[18] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص334

[19] عامر زناتي: البشير الإبراهيمي وحوادث الثامن ماي1945م، ص338

[20] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص334

[21] المصدر نفسه، ص335

[22] المصدر نفسه، ص335

[23] المصدر نفسه، ص335

[24] المصدر نفسه، ص334

[25] https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B9%D9%85%D8%A7%D9%86_%D8%A8%D9%86_%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D8%B0%D8%B1

[26] https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B9%D9%85%D8%A7%D9%86_%D8%A8%D9%86_%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D8%B0%D8%B1

[27] عبد الملك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، (1931-1945)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 141

[28] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص333

[29] المصدر نفسه، ص333

[30] المصدر نفسه، ص 334

[31] المصدر نفسه، ص334

[32] المصدر نفسه، 334

[33] حياة عمارة: أدبية المقال الإصلاحي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، ص93

[34] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص335

[35] المصدر نفسه، ص334

[36] الآية 16، سورة فصلت

[37] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص334

[38] الآية19، سورة القمر

[39] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص334

[40] الآية 112، سورة النحل

[41] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص334

[42] الآية 112، سورة النحل

[43]أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيم، ص334

[44] الآية 166 ، سورة البقرة

[45]أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيم، ص334

[46] الآية 64، سورة المائدة

[47] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص334

[48] الآية 63، سورة التوبة

[49] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص334

[50] الآية 18، سورة الكهف

[51] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص334

[52] الآية 100، سورة هود

[53] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص335

[54] الآية 117، سورة التوبة

[55] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص335

[56] الآية 18، سورة القصص

[57] محمد عباس: البشير الإبراهيمي أديبا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص331